التّفاؤلُ

زهرةٌ وردّيّة

(قصص ونصوصٌ رمزية)

الدكتور ربيع شملال
أستاذ بجامعة تلمسان

chemlalrabie@gmail.com

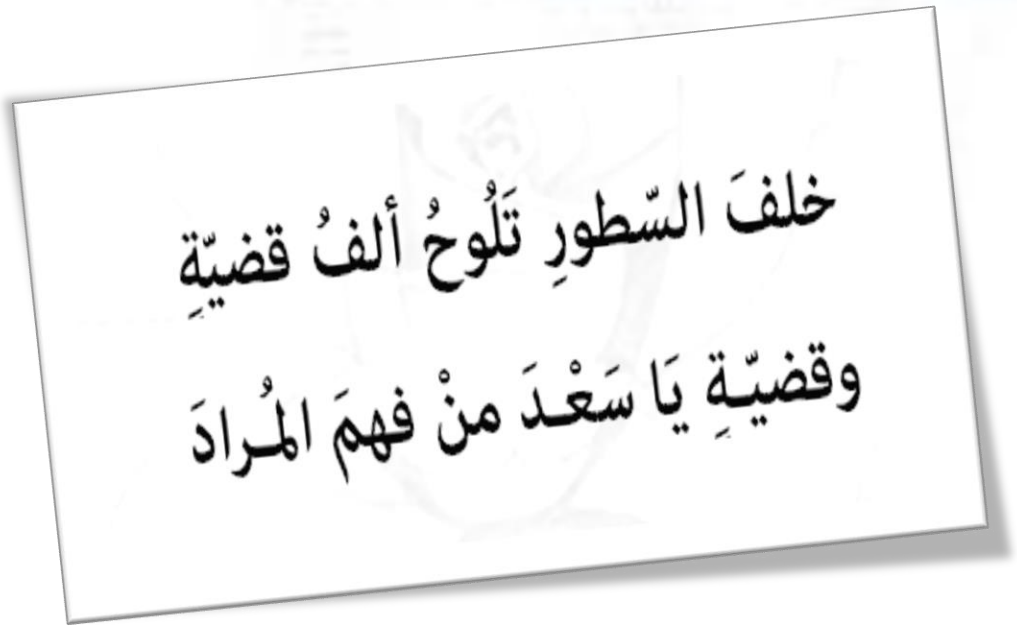
خلفَ السّطورِ تَلُوحُ ألفُ قضيّةٍ
وقضيّـةٍ يَا سَعْـدَ منْ فهمَ المُـرادَ

في حديقة صغيرة بجانب حانوت بائع الزّهور؛ أطلّت زهرتان جميلتان، إحداهما صفراء ذهبيّة، والأخرى ورديّة تسرّ النّاظرين، ونشأت بينهما علاقة حميميّة قلّ أن يحظى بها اثنان في عالمنا، وكان من غريب شأنهما أنّهما كلّما نمتا وازداد جمالهما بروزا؛ ازدادت معه تلك العلاقة التي تربطهما متانة وتصلّبا.

ولم تكونا مختلفتين في شيء، إلا في شيء واحد، هو كون الزهرة الصّفراء تميل إلى التّشاؤم، وعلى عكسها كانت الوردة الورديّة مشبّعة بحسن الظّنّ والتفاؤل، ولكن لم يكن ذلك ليؤثّر على علاقتهما، أو يفسد لودّهما قضيّة.

وفي صبيحة يومٍ مشمس، استيقظت الوردة الصّفراء باكرا على غير عادتها وأيقظت صديقتها، فسألتها الوردة الورديّة وهي تتثاءب:

. هل يستحقّ الأمر حقّا أن نضحي بمتعة النّوم اللّذيذة؟.

فأظهرت الصّفراء استعجالا وهي تخبرها أنّ الأمر أهمُّ من ذلك بكثير، وأعلمتها أنّها رأت صاحب الحديقة يشير إليهما فيما كان يحدّث البستانيّ، وسمعته يستشيره في قطفهما، وكان البستانيّ يرسم برأسه علامة الإيجاب.

ثمّ بكت وقالت:

. أظنّ أنّ هذا اليوم . يا حبيبتي . سيشهد آخر لحظاتنا في هذه الحياة الدّنيا.

فابتسمت الوردة الوردية ابتسامة عريضة، وأرسلت لزميلتها قبلة مع النّسيم، ثمّ قالت:

. بشّرك الله بالخير، فكلّ نبتة في هذه الحديقة تتمنّى هذا اليوم وتنتظره، وتسمّيه "يوم العطاء"، وتشبّهه بيوم زّفاف حوريّات البشر، هذا أجمل يوم في حياتنا فابتسمي وافرحي وامرحي، لأنّنا خلقنا لإدخال السّرور والبهجة على النّاس، وستكون أحسن فرصة لذلك عندما نُحمل في باقة، أو نوضع في إناء على طاولة.

كانت الوردة الصّفراء مشمئزّة من تفاؤل زميلتها المبالغ فيه، ولم تطق إخفاء دمعها ولا خوفها، فقالت بصوت محروق بنارِ الحسرة:

. أمّا أنا فمصابة بالرُّهاب من رؤية المقصّ في يد البستانيّ، ولن أطيق آلام القصّ حتما، وأفكّر في خطّة لو توافقينني؟.

في هذه المرّة كانت الوردة الورديّة تنظر إليها نظرة ريبة، لأنّها أحسّت . بحدسها الذي لا يكذب . أنّ صاحبتها مقدمة على أمر مستقبح، فقاطعتها معاتبة:

. أفهم مقصدَك جيّدا، وأشمّ من كلامك رائحة الجدّ، فلا تكوني حمقاء.

ثمّ اعتذرت وقالت:

. إنّ أفكارك تخيفني وتقلقني.

ومن غير داعٍ ضحكت الوردة الصّفراء ضحكةً عابثة ماجنة، تَرَدَّدَ صداها في كلّ الأرجاء، ثمّ قالت بنغمة قائد منهزم:

. أيتّها الصّديقة الصّادقة، لقد عرفتِ عنّي كلّ شيء، إلا شيئا واحدا لم تستطيعي إدراكه، ولا أنا أخبرتُك به، ذلك أنّي إذا عزمت على أمر فإنّي أعدّ الكلام حوله تثبيطا، لذلك لن أنتظر تردّدك.. سأرحل عن هذه الدّنيا، فإن رأيت أن تلحقي بي فافعلي فإنّ ذلك يسعدني.

وعبثا أرادت الوردة الورديّة إقناعها بالعدول عن فكرتها والتريّث حتى ترى ما سيصير إليه رأي البستانيّ، لأنّ الوردة الصّفراء كانت قد سارعت إلى الاهتزاز الشّديد الذي تسبّب في كسر ساقها ثمّ ذبولها.

♦ ♦ ♦

هنا انتهت قصّة الوردة الصّفراء، أمّا الوردة الورديّة فقد كانت لها قصّةُ حياةٍ ثانية أطول وأجمل.

جاء البستانيّ ذلك الصّباح ليعاين الورود والأزهار، فوقع اختياره على الوردة الوردية كما أشار عليه صاحبُه، فرفق في معالجتها، وأحسن جنيها، فلم تحسّ إلا بألم وخزرة خفيفة، ثمّ ذهب بها إلى الدّكان وعرضها للبيع.

وهناك بدأت قصّة حياتها الجديدة، فقد مرّ . بعد لحظات من عرضها . شخصٌ أنيقٌ على المحلّ، جذبه جمالُ الوردة الأخّاذ، فدفع فيها مبلغا مهمّا، وحملها هديّة لزوجته الغضبى، فلمّا رأتها الزوجة سُحرت عينُها وسُرق قلبُها، وتسلّل عبقُ الوردة المنعشُ إلى أعماقها فبلّل إحساسها، وأثار منها مكامن الذّكريات الوردية الجميلة

التي عاشتها مع زوجها، فعاودها الحنين والحبّ القديمين، ولم تشعر حتى ارتمت بين أحضانه وأعلنت أمامه أنّها غفرت ونسيت، ووعدته كما وعدها باستئناف حياة جديدة.

حفظ الزّوجان لتلك الوردة الوردية الجميلة فضلها لأنّها كانت سببا في استصلاح خيوط المودّة بينهما، واعتبراها جزءا مهمّا من تاريخهما العاطفيّ، فتوجّها بها إلى مركز التحنيط والتّوثيق، وعالجاها بموادّ كيماويّة جعلتها تحافظ على شكلها وبريقها سنين طويلة.

ثمّ وضعاها في حامل زجاجيّ مرصّع بالجواهر، وزيّنا بها خزانةً في غرفة نومهما.

ولم يقنع الزّوج بهذا، فجاء إليّ . ولي به معرفة قديمة .، وطلب منّي أن أوثّق أحداث القصّة في نصّ يُتلى، فكتبتُ ما قرأتَ، وقلت في الختام:

"ذلك فضل الله يؤتيه من امتلك نفسًا متفائلة تشعّ بالحبّ والحياة".

. أووووه.. لقد علقت.. آآ.. لا.. من الذي يمسكني من رجلي؟.

قال "الطفل أمان" هذا ونظر مذعورا إلى الأسفل، ثم صرخ:

. إنّها نبتة صغيرة، ابتعدي أيتها النبتة السّخيفة.

تفوّه بهذه الجملة في غضب وهو يعالج رجله ليخرجها من الورطة التي وقعت فيها، ولم يكن يعلم أنّ النبتة الصغيرة تعمّدت فعل ذلك حتى سمعها تقول وفي صوتها شيء من التأنيب والتحدّي:

. لماذا رميتَ غلاف الحلوى على الأرض؟.

أمان: أووو نبتة تتكلم هذا مخيف.. هل أنت فتاة مسحورة غضب عليك والداك فتحوّلت إلى نبتة سخيفة؟.

النّبتة: أيّها المغرور تحكّم في نفسك وهذّب ألفاظك وقلّل من غرورك، وإلا زدت من شدّة قبضتي، ألا تعلم أنّك رهينة عندي؟.

ضحك ضحكا عاليا، ثم صمت فجأة وأخرج سكينة صغيرة من جيبه وقال:

. ألا تعلمين أيتها المسكينة أنّه بحركة واحدة أرميك طعاما للخرفان.

النّبتة: نعم أعلم.. وأعلم أكثر من ذلك.. أعرف جيّدا أنّك من أقوى المخلوقات على الأرض، وقد تماديتَ كثيرا لأجل ذلك فحسبتَ أنّ الكرة الأرضية مِلك لك وحدك، تزيّنها كيفما شئت وتخرّبها متى شئت، ولا تأخذ رأي الكائنات الأخرى في ذلك، حتى وإن كان في فعلك هلاك لها.

وعندما سمع كلامها قاطعها مستغربا:

. أرى أنّك مثقّفة جدّا وتصلحين محامية عن الكائنات، أتسمحين بسؤال بسيط: في أيّ مدرسة درست؟ هههه في مدرسة الإنسان أو الحيوان أو النبات؟ وهل تحسنين لغة واحدة أو لغات كثيرة؟ هههه.

النّبتة: يا لك من مغرور حقّا.. في الوقت الذي كنت أنتظر منك أن تراجع تصرفاتك وتعترف بأخطائك، رحت تستهزئ بي لأنك متعلّم وأنا لست كذلك، ألم أقل لك: إنّك مغرور.

استغرب من كلامها الكبير وثقتها الزائدة، فثنى السّكين الذي كان في يده ودسّه في جيبه، وقال:

. قولي واختصري، لماذا تمسكين برجلي، أتتعمدين ذلك أم حدث صدفة؟.

النّبتة: إنّها طريقتي في الاحتجاج، وقد كلمتك مرات وخاطبتك مرات، ولكنّك لا تسمع إلا لغة التهديد، لذلك أمسكتك، ولن أطلقك حتى تسمع احتجاجي كاملا.

أمان: أمممم... قولي أنا أستمع.

النّبتة: لقد رميتَ غلاف الحلوى لما أكلتَها، أليس كذلك؟

أمان: نعم فعلت فهل وقع عليك؟، وهل كان ثقيلا فآذاك وأغضبك؟.

النّبتة: لا لم يقع عليّ، ولكنّه خَطَرٌ على المحيط الذي نعيش فيه، ألا تعلم ذلك؟ ألم تدرسه في المدارس التي تفتخر بها؟.

أمان: بلى درسته، ولكن كيف عرفت أنت؟.

النّبتة: لالا.. لا تخلط بين معرفتي أنا ومعرفتك، أنت تدرس في القسم وفي أغلب الأحيان تعتبر ما يقال لك من نصائح مجرّد كلام يمضغه الأساتذة كما يمضغون العِلكة، وليس لك إحساس بالخطر مطلقا.

أمّا معرفتي أنا فحقيقيّة لأنّي أحسّ بالخطر في عروقي، في الهواء الثّقيل وفي الماء الملوّث، لم أعد أطيق العيش بسببك أنت.

أمان: فهمت، إنك تطلبين مني مساعدتك، ولكني لست معجبا بأسلوبك، هل تطلبين المساعدة بالقبض على رجلي؟ إنّ هذا الأسلوب غير حضاريّ، أطلقيني فقد بدأت أحسّ بالألم وبدأ وجهي يغلي.

النّبتة: عجبا لك أيها الإنسان كيف تجادل عن آثامك وتزعم أنّك تفهم ما هو حضاري وغير حضاريّ.

تريد أن أطلقك ها قد أطلقتك، فهل يطلقك ضميرك إذا أطلقتك؟، لقد تعمدت القبض على رجلك، وهو أسلوب حضاريّ نعم، لقد أردت أن تشعر ببعض الألم الذي تشعر به الكائنات، إنّك أيها الإنسان برميك

القاذورات في كلّ مكان وبالدخان المنبعث من مصانعك تقبض بإحكام على كلّ الكائنات.. ليس من رجلها ولكن من عنقها.

عجبا لك أيها الإنسان كيف تجادل عن آثامك، عجبا لك عجبا لك..

أمان: فهمتُ قلقَك وعرفتُ مصدره وأنت معذورة أيتها النبتة الكريمة، ولكنّي أرى أنك تبالغين، فأنا أعيش معكم في العالم نفسه وأتنفّس الهواء عينه وأشرب الماء ذاته ولا أحسّ بما تحسّون به.

النّبتة: نعم نعم.. إنّ الإنسان آخر المتضررين ستعميه لذاته وأنانيته التي يجدها في إيذاء المحيط، وقد بنى مستشفيات لنفسه فهو لن يحسّ بما نحسّ به، ولكنّه سيندم كثيرا إذا فهم الدّرس منّا وقد سمع إنذارنا... سيكون ذلك عندما لا ينفع النّدم.

قالت هذا ثم بدأت بالغوص في الأرض والتّلاشي، ولما لم يبق منها إلا قدر أنملة توقّفت وقالت في حزن:

النّبتة: إني لست نبتة حقيقية أيّها الذكيّ إني قطعة من ضميرك.

أمان: لا لا تختفي، الآن فقط فهمت كلامك واقتنعت به أيتها المعلمة الناصحة، يجب أن تخبريني ماذا عليّ أن أفعل.

النّبتة: أنتَ أعرف مني.. لكني أذكر لك نصيحتي فلعلها تنفعك: إذا أردت أن ترضي ربّك وتنقذ نفسك ومَنْ حولك: اغرس النبات واحترم الحيوان ونظف المكان وازرع الوعي أينما حللت..

شُعلة نار

نظرت شعلة النّار المتوهّجة من الفرن إلى إناءٍ على طاولة مقابلة وقالت بصوتٍ مشتعل:

. أيها الكائن هناك.

فالتفت الإناء يبحث عن مصدر الصوت، فلما رآها بادرها:

. هل تقصدينني؟.

قالت مُعْرِضَةً:

. لا.. ولكني أقصد ذلك الكائنَ الشّفافَ بداخلك.

سمع الماء كلامها وتذكر العداوة بينهما وظنّ أنها تريد شرّا فأرسل فقاعات انزعاج، ثم قال:

. خيرا.. لقد أعرتك سمعا، فلا تضيّعي وقتي.

قالت:

. آآآآه.. أتعلم أني كلما رأيتك استعر الحقد في حُشاشتي، ولكني أتسلى لما أتذكّر أنّك سُلِبْتَ جمال اللّون والشّكل.

قال وقد رسم ابتسامة صفراء:

. ولكني مرآةٌ آخذ لون الشيء الذي يقابلني، ومائعٌ آخذ شكل الشيء الذي أوضع فيه، ولو تُرِكتُ طليقا لجبت الأرض ظهرها وبطنها.

فتنهدت تنهيدة تشبه السّعال وقالت:

. ليس في ذلك أي فضيلة، وإنما ذلك علامة على خساستك وتلونك ونفاقك، ألم تر أنّ الله سلّط عليك الأشياء لتأخذ لونها، وذلك خشية أن تتحول إلى فخ لاستفزاز الخلائق وربما ابتلاعها.

فانصرف عنها بوجهه وفي نيته ترك جدالها، ولكنه عاد يدفعه الحماس الذي زرعته فيه كلماتها، فقال مجادلا:

. إني أرى زرقة تتخلل حمرتك، وأعلم أنّها من أثر السلّ الذي أخذك من شدة بغضي، ولكنّي لا أعلم لماذا تبغضينني.

فأجابت على وجه البديهة لأنّه السؤال الذي كانت تنتظر:

. أتجهل أم تتجاهل؟.. ألا تعلم أنّ كلّ من أراد قتلي سلّط برودتك على مفاصلي فتخمد روحي ثم تتلاشى.

ولقد عزمت مرارا على الانتقام وردّ الأذيّة، ولكني أدفعها بالمجاهدة لعلمي أنّك مكره، وأنك مجرد وسيلة في يد مستعملك.

وهنا استعرت فيه جمرة التحدي فصرخ فيها:

. أقادرة أنت على أذيّتي؟..

واستفزها بضحكة عالية تطايرت بسببها بعض القطرات وقعت عليها فكادت تطفيها، ولكنّها تماسكت وقاومت حتى استرجعت قواها، ثم تنهّدت قائلة:

. ألا تعلم أنّ الإصلاح والعفو والتجاوز أصعب الأخلاق ولا يستطيعها إلا الفضلاء، وأنّ الأذية أسهل ما يكون على أيّ مخلوق لذلك يركبها الأراذل، وإنّ لي في أذيتك مذاهب ولكني تركتها لما أخبرتك به.

فصرخ ثانية:

. افعليها إن استطعت، فلا حجة لك إن لم تفعليها، وهذا الإناء شاهد بيننا..

صادف تحديه هذا مرورَ صاحب المنزل بينهما، فخفّفت من وزنها حتى طارت عن الفرن مقدار أنملة، فتلاعبت بها الرياح يمنة ويسرة حتى أصابت يد الرجل فسحبها متألما في حركة سريعة أصاب بها الإناء فانكفأ على ثيابه فتبللت.

نطق الماء من على سرواله وقد شاهد ما شاهد وحصل ما حصل:

. أهذا ما وعدتني به؟، ظننت الأمر أكبر من هذا بكثير.

قالت:

. إنّ هذا أمر له ما بعده.

توجّه صاحب المنزل إلى الغرفة وغيّر ملابسه ثم عاد حاملا ثيابه المبللة بالماء ووضعها أمام المدفأة.

كان بعيدا عنها لكنها خنقته حتى فاضت روحه وتصاعدت بخارا.

قالت معتذرة: كنت . فقط . أودّ تعليمه الحكمة التي تقول: لا يحملنّك صمت الحليم على الاستهانة به... ولكنه استعجل فهي مَثَلٌ بعده لكل معتبر.

في ورشةِ نجّارٍ وفي ليلةٍ باردةٍ جدّا قرّرتْ صفيحةٌ خشبيّةٌ الالتواءَ على نفسِها، فاستحضرت قوّةً فولاذيّةً وبدأت بالتّقوّس محدثةً فرقعات وأنّات.

صاحت زميلاتها من فرط الدّهشة:

. ماذا دهاك؟ أمجنونة أنت؟.

صعّرت لهنّ خدّها الأحمر وقالت بنبرةِ مكابر:

. وما الغريب فيما أصنع؟.

زميلاتها: لماذا تفعلين هذا بنفسك؟.

الصفيحة: وما فائدة أن أبقى مستقيمة مثلكنّ؟.

زميلاتها: أنت تعلمين أنّنا صفائحُ مهيَّأةٌ لصنع طاولات مدرسيّة، والتّقوّس يجعلك غيرَ صالحة لتلك المهمّة.

الصفيحة: وماذا أخسر إذا لم أصر طاولة مدرسيّة؟.

زميلاتها: لا.. لا تفهمي الأمر تهديدا، فلن تخسري شيئا على أيّة حال، ولكنّ خدمة العلم شرف، وصحبة طلاّبه عزّ، ولن تجدي مكانا أكرم من الأقسام، إنّها أشبه ما تكون برياض الجنّة.

أصدرت الخشبة الملتوية أنينا وفرقعةً شديدتين فَسَّرَتْ بهما التّذمّرَ والكِبْرَ الذَيْنِ يسكنانها وقالت:

. لا ألومكنّ، فأنتنّ خشبات راضيات مستسلمات، لم تذقن طعم الحرّيّة، ولم تعالجن إلحاح التمرّد.

زميلاتها: مهلا مهلا.. أيّتها الحرّة المتمرّدة، ما هذه الأفكار الدّخيلة على مجتمعنا؟، من الذي شحن بها رأسك يا ترى؟، وهل تفهمينها أو هي مجرّد مسدّسٍ أثريٍّ مهترئٍ تُشهرينه لتُخيفي به جلساءَك العزّل؟.

الصّفيحة: بل هي أفكارٌ عصريّةٌ تنويريّةٌ أفهمُها وأومنُ بها وأدعو إليها.

نظرتِ الصّفائحُ بعضُها إلى بعضٍ وقُلْنَ في هدوء:

. أمّا نحن فلم نفهم فكرتَك، فهلا تفضّلتِ بحلّ شفراتها.

كانت الخشبةُ قد أكملت استدارَتَها حتى بدت كالإصّيص، فلمّا أبصرتْ نفسَها مختلفةً شعرت بالزّهو، فأرسلت قهقهةً وقالت:

. أيزعجكُنّ شكلي الجديد؟.. أحسّ بالحسد يسري كالكهرباء في أحشائكنّ، ستقلن إنّ الأمر سهل، وأنّكنّ تأبينه وتفضّلن العيش في ظلمات الأقسام على أن تعشن في أنوار القصور، وتُسعدكنّ خربشاتُ الطّلاب بأقلامهم على ظهوركنّ أكثر مما تسعدن بعطر الورد الذي يَغْسلكُنّ به خدم القصور، وتقلن وتقلن.. على من تضحكن؟ ومن تخدعن؟، إنّ مثل تلك الأفكار التي توشوشن بها لا أراها إلا هروبا من الواقع تُغطين به فَشَلَكنّ واستسلامَكنّ.

ردّت الخشبات بنظرات استنكاريّة متعجبات من أفكارها العدائية وأقوالها الاستفزازية التي لا موجب لها، وأكملت الخشبة الملتوية حديثها:

. إنّي أستنكف أن أكون طاولة مدرسيّة مجرّدة، نكرة، لا وشم عليها ولا رسم ولا نقش، وإن زعمتنّ وادّعيتنّ، لقد كنتُ وأنا شجيرة صغيرة في المشتلة أحلم أن أكون بابا في قصر أو خزانةً في متحف ولن أتخلّى عن أمنيتي، أمّا أنتنّ فَارْضين بالأدنى طاولة أو سبورة.. فما أسخفكنّ.

أُرغمتِ الخشبات على السّكوت، لم يكن سكوتهنّ بسبب قوّة أفكارها بل لسقوطها وابتذالها، فجاء الردّ سريعا من صاحب الورشة الذي أقبل عليها يقلّبها ويصرخ كالملدوغ:

. ما هذه الخشبة الرّديئة، لم أر مثلها في رداءتها.

ثمّ التفت إلى عمّاله وقال لهم:

. خذوها مع الخردة أو ارموها فلا حاجة لنا بها.

استأذنه أحد العمّال الظرفاء قائلا:

. إنّ لها وجها كوجه الإصّيص، فإذا أذنتَ سيّدي أجريتُ عليها تعديلات وترقيعات حتى تصير إصّيصا.

♦ ♦ ♦

إذا أتيتَ إلى تلك الورشة يوما ما فستجد أمامَ المدخل إصّيصا خشبيّا معفّرا بالتّراب، قفْ أمامه قليلا، سيخبرُك أنّ من لم يخدم العلم ولم يأنس بصحبة أهله سيعيشُ حياتَه معفّرَ الوجه، وأَشَرُّ منه من احتقر أصله وتنكّر لذاته.

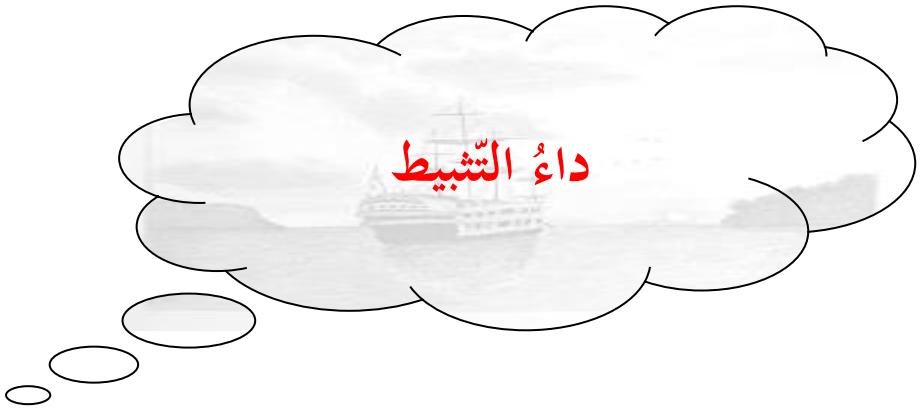

وقف على غصنين متقابلين عصفوران جميلان، أمّا الأوّل فكان حلوا خفيفا كثير الحركة قد ملأ المكان غناء وطربا، ووقف الثّاني حزينا خاملا صامتا، لأنّ طباعه تنفر من الخفّة وتستوحش من البشاشة.

وهاله ما رأى وما سمع، فاستوقف العصفورَ اللاّعبَ أمامه وسأله بغَيْظٍ وحَنَقٍ:

. لمن تبذل غناءك أيّها العصفور؟.

فردّ الأوّل بعفويّة تامّة:

. أغنّي فقط، أعرب عن فرحي وأعبّر عن سعادتي.

فاستغرب الثّاني وقال:

. وهل في هذه الدّنيا سعادة يا غبيّ؟.

كان الأوّل يعتقد أنّه أحقّ بالاستغراب من صاحبه، فكيف لمن آتاه الله جسما جميلا وصوتا نديّا ومنحه هذه الغابة الشّاسعة بيتا ووطنا أن يبتئس؟.

لذلك قال مجيبا بحماسة:

. الدّنيا تتشكّل حسب ما تراها أنت أيّها الصّديق الطّليق، فإذا استشعرت جانب الجمال فيها تزيّنت وتعطّرت وابتسمت، وإذا استشعرت الجانب القبيح فيها اسودّت وتجهّمت وكشّرت.

ثم طار عاليا، ولبث غير كثير ثمّ عاد إلى صاحبه وقال . لكنّه لم يحسن تشخيص مرض صديقه .:

. أرى أنّك مصاب باكتئاب عارض وتحتاج إلى بعض التّسلية والتّرفيه، هيّا بنا فلقد أبصرت روضا مزهرا يسرّ النّاظرين، هيّا بنا نغيّر الجوّ ونصنع بعض المرح لعلّنا نحصل على السّعادة.

فضحك الثّاني ضحكة فيها القليل من الثّقة والكثير من الغرور وقال:

. لا أظنّ أنّ روضا كالذي وصفتَ موجود في غابتنا، لا أظنّ إلاّ أنّك تعاني من داء الوهم والتّخيّل.

فابتسم الأوّل ورمى ببصره إلى السّماء، ونظر نظرة ارتياح كأنّه يحمد الله على نعمة التّفاؤل ومنحة الأمل، ثمّ نطّ نطّة فإذا هو في كبد السّماء يسبح ويمرح، ولم تمض هنيهة حتى عاد وفي منقاره زهرة صفراء جميلة، ومكث يدور ويلوّح بجناحيه حول الشّجرة، ثمّ ألقاها أمام العصفور المتشائم وقال له:

. تريد الدّليل؟.. هاهو الدّليل أمامك.

رأى العصفور المثبّط الزّهرة الصّفراء مشعّة كأنّ الحسن كلّه جمع فيها، فهل أقرّ لشريكه؟.

كلا، لا شيء من ذلك حدث، وعلى عكس ذلك تماما، فقد أبدى العصفور المثبّط إصرارا أقوى وقال محاججا:

. وهل يوجد في الرّوض ماء؟.

قال المتفائل:

. عذب زلال، كأنّما يتدّفق من الجنّة.

هزّ المثبّط رأسه وقال:

. وهل هناك زاد؟.

قال المتفائل مبشّرا:

. فاكهة كثيرة وحَبٌّ وريحان.

قال المثبّط:

. وهل رأيتَ هناك شجرا عاليا نتّخذه مأوى؟.

قال المتفائل والسّرور ينضح من نغمته الحلوة:

. أنواع لا تحصى من الأشجار والأخراش والرُّبَا، فإن أبيت فغابة الجبل قريبة وهي آمن وأستر.

وهنا ضحك المثبّط ضحكة منتصر وقال مؤكّدا:

. ما دام هذا المكان بذلك الجمال الذي وصفتَ فإني أنصحك أن لا تستوطنه.

ثم صمت قليلا وأكمل موعظته:

. ستسألني لماذا؟ والجواب بسيط، لأنّك لن تلبث أن تعتاده وتحبّه، حتى إذا تعلّق به قلبك جاء من يطردك منه ليستولي عليه، وأنت أعلم منّي بما يسبّبه لك ذلك . إن حصل . من ألم الذّكرى ووخز الحنين.

لم يكن العصفور المثبّط صادقا فيما يقول، ولم تكن خطبه سوى كلام شخص مهزوم يرى الدّنيا سوداء كالحة من خلال نظّارته السّوداء، ورأى فيما رأى كلّ مَنْ حوله يلعبون ويقفزون ويضحكون، فأغاظه ما شاهد منهم، فخطّط لسرقة ابتساماتهم.

وليست النّجاة منه أمرا سهلا كما يتصوّره بعضنا، فكلامه أشبه ما يكون بنسيج العنكبوت، والمستمع إليه ذبابة مسكينة تظلّ تتخبّط وتتلوّى حتّى يأتيها مصيرها.

ومن نعمة الله على العصفور المتفائل أنّه تنبّه أنّ صاحبه مريض بمرضين؛ مرض التّشاؤم ومرض التّثبيط، وأدرك أنّه عنكبوت شرّير ناصب شباكه منتظرا صيدا يرديه، ففزع وخاف، وأغلق أذنيه بصمّامتين سديدتين، ثمّ قال متمتما من غير وعي:

. سلاما.. سلاما..

ثمّ طار إلى روضه الجميل ووطنه الجديد.

أرادت نحلة جوّالة أن تقع على زهرة حمراء جميلةٍ فاهتزت الزهرة اهتزازا شديدا، فبدا الأمر كأنّها ترفض تصرّف النّحلة، أو هكذا فهمت النّحلة فطارت مبتعدة، ولما قاومت ظنّها وعادت.. عادت الزهرة إلى الاهتزاز.

وهكذا فعلت مرات عديدة.. إذا جاءت النحلة من اليمين انصرفت الزّهرة شمالا، وإذا يممت النحلة صوب الشّمال انحرفت الزّهرة يمينا، فغضبت النحّلة غضبا كاد يفجّرها وقالت تخاطب الزّهرة بندّية:

. أتظنّين أيّتها المخلوقة الجميلة أنّي أحتاج إلى جمالك ورحيقك إلى درجة تجعلني لا أستطيع الاستغناء عنك؟.

وصمتت تنتظر إجابة، لكنّ الزّهرة لم تنبس ببنت شفة، فراحت النّحلة تسألها:

. هل تعتقدين أنّك تبذلين خيرك دون مقابل، والله إنّ فضائلي عليك أكبر من فضائلك عليّ، ولو عددتِ الخير الذي يصيبك عندما أحطّ عليك لما أحصيتِهِ.

وانتظرت إجابة الزّهرة مرّة ثانية فلم تفعل، فازداد غضب النّحلة فرفرفت عاليا ثمّ عادت وقالت متحدّية:

. سأمضي عنك ولن أعود إليك أبدا، وستعلمين حجم الخطأ الذي ارتكبتِهِ.

وهمّت بالانصراف لكنّ الزّهرة تحرّرت هذه المرّة من عقدتها وقالت أخيرا بصوت مبحوح:

. أعتذر من كلّ قلبي أيتها النّحلة السّخيّة المؤدّبة.

ظنّت النّحلة أنّ الزّهرة تستهزئ بها فقالت والغضب لا يزاولها:

. وبَعْدَ مَاذَا تعتذرين؟.

قالت الزّهرة مبادرة:

. لا تسرعي إلى الشرّ أيّتها الصّديقة الصّادقة حتّى تعرفي عذري.

قالت النّحلة:

. وأيّ نوع من الأعذار ستختلقين؟.

قالت الزّهرة:

. هو عذر شاهدتِهِ لكنّك لم تتنبهي له، وأخشى إذا سمعته أن تنقلبي أنت المذنبة وتسارعين إلى الاعتذار.

قالت النحلة:

. هه.. قولي..

قالت الزهرة:

. لولا سابق خيرك عليّ لما شرحت لك، اعلمي أيتها الصّديقة الكريمة أنّ اهتزازي لم يكن بإرادتي بل كان بفعل الرّيح، وهي التي خنقتني ولم تدعني أجيب عن أسئلتك.

فلما سمعتِ النحلة عذر الزّهرة خجلت، وعلمت أنّ سوء الظّنّ أوردها موردا صعبا، وأدركت أنّ الاعتذار بالقول لم يعد مجديا، فارتمت على الزهرة تعانقها وتقبلها.

اقتنى الأب من السّوق صندوقين متشابهين ومتماثلين، لهما نفس المقاس، ونفس اللّون، ونفس عدد الأدراج، وعليهما نفس النّقش كأنّهما توأم، بحيث لا يشكّ الرّائي أنّهما صنعة يدٍ واحدة بخشبٍ واحدٍ وموادّ واحدة وتصميمٍ واحد، وحملهما إلى البيتِ جذلان فرحا، فلمّا رأتهما زوجتُه قالت بمرارة معهودة:

. صندوقان مرّة واحدة؟، اثنان كثير، كان يكفي لو اقتنيتَ واحدا فقط.

لا أدري هل وُفّق الزّوج في إخفاء امتعاضه من انتقاداتها، لكنّه حاول أن يفعل وهو يقول:

. رغبتُ في ذلك، ولكنّ البائع أبى أن يفرّق بينهما.

قالت الزّوجة مستدركة:

. سنجد ما نصنع بهما على أيّة حال، كلّ مصنوع نافع فلا داعي للانزعاج.

ثمّ تناقشا ساعة واستقرّ الأمر أخيرا على أن يجعلا أحد الصّندوقين أمام الجدار قبالة الباب، واختاروا أن يخفوا فيه الجواهر والأشياء الثّمينة، ويضعوا له قفلا فضّيّا مشعّا يحكمون به إغلاقه، وغطاءً حريريّا مطرّزا وموشّى يسترونه به.

وأمّا الثّاني فوضعوه عاريا خلف الباب، وخصّوه بالخردة والأشياء التّالفة.

وكان اختيارهم بين الصّندوقين عشوائيا من غير قَصْدٍ أو ميزة أو مَزِيَّة، وقد أخبرتُك أنّهما كانا متماثلين كصندوقٍ واحد فلا تدع النّسيان يذهب بعقلك.

♦ ♦ ♦

مرّت الأيّام سراعا، وأقام أهل البيت عرسا دعوا إليه الأهل والأحباب، فكان إذا دخل أحدُ الضّيوف البيت ورأى الصّندوقَ المستورَ وقف أمامه مبهورا، وربّما أطنب في وصفه ومدحه، وما نظر أحدٌ إلى الصّندوق العاري إلا أشاح عنه بوجهه ولم يعره أدنى اهتمام.

وتكرّر الأمر إلى ساعةٍ متأخّرة من ذلك اليوم، أي حتى انصرف الضّيوف جميعا، فلمّا خَلَتِ الدّارُ إلاّ من أهلها، استشرف الصّندوقُ المستورُ وأطلّ على الصّندوق العاري، وحملق فيه بازدراء وقال بنبرةٍ فيها الكثير من الشّفقة المكذوبة:

. لو كنتُ مكانَكَ لما كتمتُ دمعي.

لم يفهم الصّندوق العاري مقصد أخيه، فقال مستفهما:

. ومم ذلك؟.

قال الصّندوق المستورُ وهو ظالمٌ لنفسه:

. ألم تستمع إلى ما قال الضيوف عنّي وعنك؟.

قال الصّندوق العاري:

. بلى سمعت، ولكن لماذا أغضبُ وأنا أعلم أنّهم لم يقصدوا مدحك أو ذمي؟، نحن متشابهان، وما قصدوا بكلامهم غير مدح الغطاء الذي يزيّن ظهرك، والقفل الذي يغلق على ما في صدرك؟.

ضحك المستور ضحكة الغاضب، وقال بصوت مُلِئَ غيظا:

. آآآ.. أنت حقّا تعتقد ذلك؟ لماذا إذن فضّلوا بيني وبينك فحمّلوك الخسيس وحمّلوني النّفيس؟ أترى أنّ ذلك كان مجرّد مصادفة.

أراد الصّندوق العاري أن يبيّن له خطأ نظرته، ويُعِيرَه تفسيرا منطقيّا للذي حصل، لكنّ لصّا متخفّيا قطع عليهما حديثهما، عندما قفز من النّافذة، وكان قد تسلّل مع الضيوف صباحا ليستكشف المكان، فعلم . بما رأى وسمع . أنّ المجوهرات في بطن الصّندوق المستور، فلم يتماطل، وذهب مباشرة إليه، وحاول كسر القفل، فوجده صلبا متينا قد يورّطه إذا انشغل به، فعدل عنه إلى فكرةٍ أخرى، وهي إحداث ثقب في جانب الصّندوق، فكانت هذه أسهل وأنجع، واستخرج ما كان بداخلِهِ وهرب.

♦ ♦ ♦

حزن أهل الدّار لما ضاع منهم، ولكن سرعان ما تسلّوا عن مصيبتهم، فأعادوا تنظيم المكان، وأبصروا ما فعل اللّصّ بالصّندوق، فرفعوه واستبدلوا به الصّندوقَ العاري، وستروه بما ستروا به الأوّل، فظهر في نفس بهائه، لم ينقصه شيء، حتّى إنّ أحدا لم يشكّ في أنّه هو.

إنّ مَثَلَ النّاس في طلب أمانيّهم كَمَثَلِ خمسة شبّان:

. قام الأوّل مسرعا عجلا من غير أن يتهيّأ للمهمّة، فقصد برج الأماني وطرق بابه طرْقا عنيفا دون رويّة ولا انقطاع، وظلّ يطرق ويصرخ حتى خرج الحُجّاب عليه فضربوه وأهانوه وعنّفوه وطردوه، وكان ذلك حالُه كلّما كرّر استئذانَه بطريقته العنيفة.

إنّه مَثَلُ المستعجِل.. وإنّ للشيطان من فعله لنصيبا.

. وجلس أحدهم في البيت يحسب ويخطّط ويستحضر العقبات والمشاكل والمطبّات، وكان كلّما تشجّع وهمّ بالقيام جاءه صوتٌ اعتاده . كأنّه صوت ذاته الحائرة .: هل استحضرتَ قيمة ما قد تخسره إذا لم تنجح

المهمّة؟ هل أخذتَ احتياطك لتواجه الألم الذي يتسبّب فيه طردك؟، وإنّ طردك لممكن، وإنّ طردك لوارد..

فيحسّ كأنّه يلتصق بالأرض، ويشعر أنّ جسمه يثقل، وتمرّ عليه وساوس وأفكار، يقلّبها في ذهنه كما يقلّب الغسّالُ الميّتَ على المصطبة، ثم يقرّر التأجيل قرارا واحدا لا يقبل الطّعن.

فذلك مثل المنهزم.. ليس منّا ولسنا منه.

. أمّا الثّالث فانطلق دون أن يخطّط، انطلق وكلّ همّه أن يصل، فلمّا أبصر منارات البرج من بعيد لم يجد الفرح والشوق المنتظرين، لأنّه لايحمل فكرة صحيحة عن مطلبه.

وفي طريقه رأى سوقا اجتمع النّاس باختلاف ألوانهم وألسنتهم فيه، فأشرق وجهه فرحا ونسي غايته، وعلى عكس ما هو متوقَّع أعرض عن مطلبه، وانطلق إلى السّوق يبيع ويشتري، حتى انقضى الوقت وهو منشغل بالشّواغل منصرف إلى الصّوارف.

فذلك من عرفتموه، إنّه المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

. وليس الرّابع بأحسن ممن سبقه حالا وإن بدا كذلك.

وهو من فكّر وقدّر وأعدّ العدّة وقطع المسافة، إلا أنّه طرق الباب طرقا خفيفا متباعدا فلم يُفتح له.

أيس وانصرف، فلمّا ابتعد سمع صرير الباب وهو يفتح، فعاد راكضا، لكنّه صدم لأنّه وجد الباب مقفلا.

وذلك أنّ الحاجب التفت يمنة ويسرة فلم يجد أحدا، فاعتقد أنّ الطّرْقَ بسبب الرّيح، فصكّ الباب، ولن يفتحه ما دام صاحبنا يطرق طرق خائف خجول.

نعم.. ذلك مَثَلُ الخائف الذي يكثر الالتفات والمساءلة، وينقصه الفهم الصحيح والهمّة الصّارمة.

. أمّا الخامس فما الخامس؟، مؤمن بقدراته عارف بإمكاناته، ما الدّليل بأعرف منه بالطّريق، ولا المجرّب بأفقه منه بالعواقب، ولا الجنديّ بأشجع منه.

طرق الباب طرْقَ وَرِيثٍ محترم، فلا عجب إذ فُتِحَ له وأُكرم وأُنزل منزلة ذوي الهيئات.

إنّه والله مَثَلُ الحريص، وما الحريص إلا إنسانٌ عرف ففهم فأحبّ فعزم فتوكّل على الله فبدأ.

يروى أنّ ثلاثة معلولين التقوا في عيادة بيطريّ فقصّ كلّ واحدٍ منهم قصّته وبثّ شكواه:

قالت الدّجاجة:

. رأيت نسرا يحلّق في السّماء، فتفجّرَتْ في نفسي شهوة الطّيران، فتسلّقتُ مرتفعا عاليا ورميت بنفسي مقلّدة النّسر في طيرانه، فسقطت وتكسرت أضلاعي..

قال الأرنب:

. ما أغرب ما قصصتِ، وإن كانت حكايتي تبشه حكايتك إلى حدّ كبير، كنت معجبا جدّا بقوّة الثّعلب وحيلته، وظننتُ أنّه ما حاز ذلك إلا لأنّه آكل لحوم، فأتيتُ جيفةَ طائرٍ فعالجتها بأسناني، فلمّا استقرّت في بطني أحسستُ بالمغص، وعالجت آلاما لا توصف، قبل أن أعلم أنّي أصبتُ بداء المعدة والأمعاء..

قال القطّ باكيا:

. وأنا مثلُكما حاولتُ أن أُحاكي بموائي زئير الأسد فبحّ صوتي.. أريد صوتي.. أريد صوتي..

كان الطبيب البيطريّ من عيادته يسمع حديثهم، فهزّ رأسَه وقال:

قاتلَ الله التقليد الأعمى، كنت أسمع أنّه من أمارات الحمق والخرف والجنون، وأنّه حيلة الضّعفاء، وخطّ الرّسوب، ومقبرة المواهب، ومصيدة الأحلام، وأنا الآن أرى عِيانا ما كان مجرّد خبر.

ثمّ تنهّد وقال:

حتى الإنسان إذا أراد أن يقلّد غيره تقليدا مطلقا فإنّ الإبداع يحزم حقائبه ويرحل.

داءُ التّردّد

إذا أقبلتَ على أشغالك من غير روح، وسعيتَ في حاجاتك من غير حبّ، واعتقدتَ أنّ مستشارا واحدا لا يشفي، وزادَك لا يكفي، وأنّ الزّمان والمكان غير مناسبين.

إذا رأيت من نفسك معاندة كلّما هممت، ومن قلبك انقباضا كلّما عزمت، وساخت قدماك في الأرض كلما أقدمت، فاجزم . ولا تتردّد . أنّك مصاب بداء التّردّد.

وهو داء . عافاك الله منه . لا يدع في قلب صاحبه إيمانا من غير شكّ، ولا احتمالا من غير وسواس، ولا قناعة من غير ريبة، ويصيّر القلب . سلّمك الله . قبرَ الأفراح بعدما كان مَنْجَمَ الهمّة والعزيمة.

♦ ♦ ♦

صديقي "كمال" شخص عصف التردّد بعزمه، وأكل عقله، وصفّد بالحديد يديه ورجليه، وله قصص في ذلك تحكى، من ذلك قصّة أرويها لك، وهي معبّرة وإن لم تكن وافية، وذلك أنّه قال لزوجته وهو يهمّ بالخروج:

. عزمت على شراء كبش العيد، ولن أتردد هذا العام كما تردّدت في العام الماضي فتفوتني بهجة العيد وأجره.

فردّت الزوجة وهي تطوي الثّياب:

. إنّ رأيك لسديد، فأنت مقدم على طاعة، ومن كان سعيه في طاعة استحقّ إعانة الله.

فتنهّد من أعماقه وقال:

. وهل تعلمين من أين سآتي بالمال؟ أم وجدت الكلام بالمجان فتكلّمت؟.

الزوجة: قلت لك إنّك أقدمت على مشروع عظيم وسيعينك عليه ربّك، فلا تفكّر في أمر المال، فإنّه ميسّر ومخلوف.

الزوج: لا أرى إلا أنّك تهرفين، وكيف سأشتري الكبش إذا لم يكن عندي مال؟.

الزوجة: إذا كنت خائفا من الاستدانة فلا عليك أن تدع التّضحية إلى العيد القادم، ولا تحزن فأنت فاقد الاستطاعة، وفاقد الاستطاعة معذور.

الزوج: ولكني أملك مالا ادّخرته طوال أشهر، وهو وإن كان دون ثمن كبش، إلا أنّه مشجّع.

الزوجة: إذا كان الأمر كذلك فقد حلّت المشكلة.

الزوج: كيف حلّت المشكلة؟ كيف؟ ألم تسمعي أنّه لا يكفي.

الزوجة: سمعت كلّ ما قلتَ، وقدّرتُ أنّ استدانة جزء من المبلغ أهون من استدانة المبلغ كلّه.

الزوج: تحكين بهذه العفوية ودون حرج، وتفترضين وتقترحين، وتستصغرين أمر الدَّين، كأنّك لا تعلمين أنّ الدَّين ـ وإن قلّ ـ هَمٌّ بالليل ومذلّةٌ بالنّهار، وأنّه رِقُّ الأحرار وقاهرُ الرّجال؟.

الزوجة: هذا رأيٌ صحيح، فخذ به.

الزوج: ما أكثر ما تتغيّرين، ألا تستطيعين تشكيل رأيٍ سديد تثبتين عليه؟.

الزوجة: الرأي السّديد أن تأخذ بما ارتاح له قلبك ولا تتردّد.

الزوج: صحيح والله، ما ألطف هذا الرّأي، لماذا لم تجودي بمثله من الأوّل فتستريحي وتريحي؟.

الزوجة: كنت أردّده ولكنّك لم تسمعه.

الزوج: والله ما صدر منك، ولا حتى ورد على لسانك.

الزوجة: لم أصرّح به، ولكنّي قلت ما يجعلك تفهمه.

الزوج: لا أظنّ ذلك.

الزوجة: دعنا من هذا النّقاش العقيم، وقل لي: ما الرأي الذي ارتاح له قلبك؟.

الزوج: والله.. إني.. لست متردّدا إطلاقا ولكنّي.. أقول لك؟.

الزوجة: نعم قل.

الزوج: في الحقيقة.. الأمر صعب إلى درجة أنّ الحزم ضاع وأنا أفكّر، ولكنّي عزمت.

الزوجة: قل؛ ما الرأي الذي عزمتَ عليه؟، وإن كنتُ أشكّ أنّك تستطيع العزم في شأن من شؤونك.

الزوج: أتشكّين في زوجك؟ هكذا إذن تقلّلين من شأني، وتطعنين في شخصي، إنّك والله ناكرة للعشرة، مضيّعة للمعروف.

الزوجة: أوووووه.. هذا كلّه قاد إليه تردّدك، قل يا رجل ولا تأخذنا من موضوع إلى موضوع.

الزوج: وماذا أقول؟.

الزوجة: قل الرّأيَ الذي استقرّ عليه عزمُك.

الزوج: آآآ.. لقد عزمت على شراء كبش العيد، فلا يصحّ أن أتقشّف شهورا كاملة لأجمع له مالا، ثمّ أتراجع في آخر لحظة.

الزوجة: الحمد لله، إنّه نعم الرأي، اذهب الآن واحمل المال، واقصد السّوق حالا قبل أن يأتيك شيطان التّردد ثانية.

الزوج: ولكنّ المال لا يكفي.

الزوجة: عدنا ثانية؟ أقول لك؟ عندي الحل، خذ هذا السّوار الذي أهديتني إياه أيام الخطوبة، وأضفه للمبلغ الذي ادخرته.

الزوج صارخا: بئس الرأي، بئس الرأي، بئس الرأي.

الزوجة: افعل ما تشاء فلست مشاركتك في الحديث ولا مشيرة عليك.

الزوج: الرأي أوضح من الشمس، سأشتري كبشا بالمبلغ الذي معي ولا أستدين، لأنّي فقير، والله أعلم بحالي.

الزوجة: .....

الزوج: هل تظنّين أنّي سأحصل من السّوق على كبش بالمبلغ الذي معي؟.

الزوجة: .....

الزوج: ولا يهمّني إن كان الكبش هزيلا، المهمّ أن يكون سليما من العيوب الشّرعيّة.. مارأيك؟، ألا تنطقين؟.

الزوجة: .....

فلمّا رأى أنّها لا تجيبه قام إلى الخزانة وفتح الدُّرْجَ وبحث تحت الملفات عن المال فلم يجده، فتلوّن وجهه، وفتح الدّرج الذي يليه والغضب يمنعه من الكلام، هل نسي المكان الذي أخفى المال فيه؟.

وفجأة أطلق ضحكة مجلجلة، ونادى على زوجته:

.كريمة.. كريمة..

الزوجة: .....

الزوج: كريمة.. كريمة..

الزوجة بامتعاض: نعم.

الزوج: لماذا لم تذكّريني؟ لقد نسيت، نسيت أنّ الخزانة الجديدة التي تزيّن غرفة نومنا، والتي أبحث الآن في أدراجها، قد اشتريتها بالمبلغ الذي أقول إني ادخرته لأجل كبش العيد.

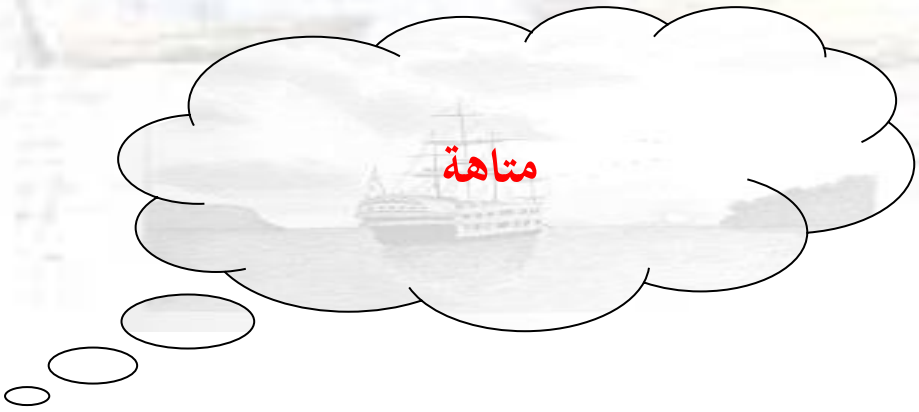

حزنتُ كثيرا لمّا سقطتُ داخل حفرة عميقة.

ثمّ فرحتُ لمّا رأيت حولي أكواما من الذهب والكنوز.

ثمّ حزنتُ لما لم أجد مخرجا.

ثمّ فرحتُ لمّا سمعتُ صوتَ أناس يدخلون عليّ من باب سرّيّ.

ثم حزنتُ لمّا علمتُ أنّهم لصوصٌ قتلة.

ثمّ فرحتُ ورضيتُ بالسّلامة لما تذكّرتُ أنّه مجرّد نصٍّ أكتبُه لأصف به حال الإنسان اللاهث وراء الدّنيا.

نظر الغراب من قفصه إلى القفص الذي أمامه فرأى أسدا يتبختر في مشيته ذهابا وجيئة، ففرح بمجاورة الأسد، واعتبرها مفخرة له، وفكّر في عقد صداقة معه، ولم يكن يعلم المسكين أنّ الأسد مصاب بداء الألقاب، وهو داء خبيث يقسي ويطغي ويردي، وينفخ المتلبّس به حتى يجعله ككرة المنطاد، فلا هو حيوان ولا هو غير ذلك.

افترّ الغراب . بعفويّة تامّة . عن ابتسامة صادقة، وحيّى الأسد قائلا:

. صباحُ الخير أيها الأسد الجميل.

ولقد أجاد في وصفه وأبلغ في مجاملته، وكان ذلك سيفرح الأسد لو لم يكن مصابا بالداء الذي أخبرتك عنه، ولكن حدث عكس ذلك، إذ غلبت أعراض الدّاء على الأسد المغرور فخنقته، ومنعته من ردّ التحيّة، وسكن في مكانه، وقلب عينيه، ثمّ لوى عنقه ناحية الصوت بامتعاض، وغضب غضبتين؛ الأولى لأنّ الغراب لم يتوّج اسمه بتاج الملْك، والثانية لأنّ الغراب، إي والله.. الغرابَ الأحمقَ نفسَه وصفه بالجمال.. ثمّ زأر وقال:

.كيف سوّلت لك نفسك أيّها السفيه أن ترغب عن تحليتي بلقب الملك؟، أجهلت قدرك أم سفهت نفسك؟.

وأراك ذَهَبَتْ بك الجرأة مذهبا خاسرا حين وصفتني بوصف الجمال وهو مقزز، واستنكفت عن وصفي بالقوة والشجاعة والمهابة التي تعوّدتم في الغابة توقيري بها وأنتم أذلّة صاغرون.

فلما سمع الغراب ما سمع أدرك أنّ الأسد مصاب بالمرض القديم، فبلع ابتسامته الوردية الصادقة، وافترّ عن أخرى صفراء ساخرة، وقال:

. صدقت أيّها السّجين، لكلّ مقام مقال، ولكلّ محلّ تحلّ به، لقبٌ يليق به، ففي دولتك التي تسمى الغابة؛ أنت ملك وسيّد وسلطان وما شئت من الألقاب والأوسمة والنياشين، أمّا في حديقة الحيوانات فلست سوى:

رسم جميل في إطار، تتسلى بك الأنظار..

الحجرُ المنبوذ

خرج أحد القاطنين قبالة الجامعة من بيته فوجد حجرا بحجم كرة أمام باب داره، نظر إليه مغضبا، ثمّ دحرجه إلى قارعة الطّريق وهو يغمغم ويتمتم.

كان الأستاذ يشرح لطلبته قيم الحضارة عندما رأى هذا التّصرّف من نافذة القسم في الطّابق الأوّل، فأوقف حديثه فجأة وقال لطلبته:

. لقد فكّرت . وأنا أحضّر الدّرس . في مثال عمليّ أقرّب به المعاني الذّهبيّة التي طبختها لكم، ورغم كثرة المحاولات فإنّي عجزت.

ولكنّ الواقع أبى إلا أن يجود بمثالٍ حيّ لن أجد مثله ولو اجتهدت في البحث ألف سنة.

صمت الطلبة وفوق كلّ واحد منهم وقفت علامة استفهام واحدة التفّتْ حولها المئات من علامات التعجّب.

صمتوا وصمت الأستاذ بالقَدْرِ الذي أحسّ فيه أنّ خميرة الفضول قد فعلت فعلتها، ثمّ أشار بيده قائلا:

. هيّا إلى النّافذة.

اصطفّ الطلبة أمام النّوافذ، ووقف من لم يجد مكانا على كرسيّ خلف زملائه حتى لا يضيّع الفرصة.

أشار الأستاذ بحماس إلى قارعة الطّريق وسألهم:

. أترون ذلك الحجر؟

قالوا بصوت واحد:

. نعم يا أستاذ.

. أتدرون من ألقاه وسط الطّريق؟.

. لا.. لا نعرف يا أستاذ.

. فكّروا.. رُبَّ إجابة خاطئة أوحت بإجابة صحيحة.

قال أَنْجَبُهُمْ:

. إنّ هذا الأمر لا يُدركُ إلا بالرؤية، ونحن لم نر من رماها، فالأفضل أن تجيبنا أنت يا أستاذ.

ابتسم الأستاذ وقال:

. ومن غيره؟، أحد الذين يحفظون قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : "إماطة الأذى عن الطّريق صدقة" ولا يعملون به...

استغرب الطّلبة من إجابة الأستاذ، فقطع استغرابهم قائلا:

. دعوا من رماها واعجبوا معي، فالنّظريّة تقول: إنّ قوما يمرّ عشرة رجال منهم على أذى ملقى على الطّريق ثمّ لا يتطوّع واحد لإماطته، فاحكم جازما أنّهم قوم لا يملكون القابليّة للتطوّر.. هيّا احسبوا.

حسب الطّلبة مائة من السّابلة، ولم يكن بينهم من يميط الحجر، فضحك الأستاذ حتى قطع السّعالُ ضحكَه وقال:

. سيأتي من يميطه، فلا تستعجلوا، ولكن أتدرون من هو وما قصّته؟.

هزّ الطلبة رؤوسهم وأيديهم أن لا.

فعاد الأستاذ شارحا:

. سوف يميطها شخصٌ واحد لا غير، ستكون له قصّة مع الحجر، سيعثر فيه ويسقط، فيقوم مغضبا ويسبّه ويلعنه ثم يحمله ويرميه بعيدا عن قارعة الطّريق، وقصده أن ينتقم منه لا أن يميطه.

أصدر الطّلبة جلبة وهم يضحكون ويعجبون.

وقال الأستاذ:

. هل فهمتم؟.

سأَلتُهم عن العلمِ

سألت المعلّمين عن العلم، فقالوا: "هو مَرْكَبٌ صعب، ونخلة باسقة، يجلس عليها المتعلّم محفوفا بالمخاطر، ويجلس تحته سيّاح التّعلّم، من هواة جمع طوابع المعرفة، فيرميهم بالتمر ويرمونه بالحجارة".

وسألتُ العاطلين، فقالوا: "هو مركب وطيء، وبلدة طيّبة، يدخلها المتعلّم أملس اليدين، فارغ الجيبين، فلا يلبث حتى يأتيه الرّزق رغدا من كلّ مكان".

وسألت التلاميذ الرّاسبين، فقالوا: "ليته كان مركبا صعبا أو وطيئا، إذن لركبناه وعشنا روعة المغامرة، ولكنّه موجة ظامئة، تخبط شاطئ أحلامنا بجنون، فتدمّر قصورنا الرّملية وتمضي".

وسألت التلاميذ النّاجحين، فقالوا ولم يزيدوا: "هو طبق شوكولاطة محلاة بالبندق والجوز".

وسألت المسؤولين، فقالوا: "ليس لدينا الوقت الآن لحواراتك المترفة، عد بعد أسبوع".

فلمّا عدت في الوقت المحدد وجدتهم في إجازة.

فسألتُ العلماء، فأبوا أن يجيبوا حتى أحكي لهم عن كلّ الإجابات، فلمّا سمعوها ووعوها؛ غضب بعضهم من بعضها، وضحك بعضهم، وقالوا جميعا:

"لالا.. لا يمكن أن يكون العلم شيئا من ذلك، لا يمكن لأيّ أحدٍ أن يحسن وصفه إلا إذا افترض أنّ كلّ النّاس عميان، فيكون العلم حائذ عصا بيضاء يُهتدى بها، فإذا أحبَّ طالبُ العلمِ العلمَ صار له قائدا ومرشدا، حتى إذا تمتّنت العلاقة بينهما، وأحبّ العلمُ الطالبَ صار له عينين جميلتين".

وسألت نفسي: أيّ الإجابات أعجب إليكِ؟، فقالت ولم تدار:

"أحبّ الشكولاطة المحلاة بالبندق والجوز".

سألتهم بلسان مقال، فأجابوني بلسان حال.

قصّةُ أرض الغزلان(مثلُ أمّتِنا)

إنّ مثل أمّتنا اليوم كمثل قصّة أرض الغزلان، وهي أرض مشكّلة من سهول ووديان، ومروجٍ وجنان، وعشبٍ وفاكهةٍ ورمّان، ويسرِ عيشٍ واستقرارٍ وهناءٍ وأمان، وليس فيها من سائر الحيوان غير الغزلان.

وكان قائد الغزلان الأكبر قد حذّرهم من صيّاد ماكر يتبعه صيّادون، سينقضّ على أرضهم إذا سمع بها وعرف عن خيراتها، وأمرهم أن يتترسوا، ويتحصّنوا لذلك اليوم.

فلم يسمعوا كلامه، ولم يأخذوا أهبتهم، وانشغلوا عن نصيحته باللهو والرّعي، حتى قدم عليهم الصيّاد على حين غفلة، ورمى بنيران مسدّسه صوب نحورهم، فأصاب غزالا منهم.

فلمّا رأى بقيّة القطيع ما حلّ بصاحبهم هربوا إلى تلّة عالية واحتموا بها، وجلسوا يتحسّرون، ويشجبون ويندّدون، ويعربون عن قلقهم إزاء الوضع المحيّر.

حتى تكلّم غزال عُرف بينهم بالذكاء والإخلاص فقال:

"فكّروا في حيلة ولتكن من ابتكاركم، ولا تثقوا أبدا في غيركم، فإنّي لا آمن أحدا عليكم ولا على أرضكم، أن يحسدكم إن هو رأى الخير الذي أنتم فيه".

فقالوا: "وما عسانا أن نفعل ونحن الأضعف؟".

فهزّ رأسه وقال:

"إنّ التجارب تخبرني أنّكم متى أُبْتُم إلى رشدكم وأخذتم برأي قائدكم الأكبر ونصائحِه، فتآلفتم وتآزرتم وتجمعتم، ورميتم عدوّكم عن قوسٍ واحدةٍ، أوشك أن تنجوا، وإذا أنتم أعرضتم واستعنتم بغيركم لن تكونوا أكثر من قصعة تتدافع الأكلة عليها".

فرفضوا قوله، واستبعدوا خطّته، وقالوا: ما أبعده عن فقه الواقع الذي نحن فيه.

وأخذ خيطَ الكلام غزالٌ مجهول، لم يره أحد قبل ذلك الحين في القطيع، وتكلم بخضوع فقال:

"أعرف صيّادا آخر أكثر ولعا بالغزلان من هذا الوافد، وبينهما خصومة، فهل أنتم مستثمرون فيها؟، فإن رأيتم رأيي فإنّي مرشدكم إليه ودالّكم عليه".

فهزوا رؤوسهم إعجابا، وعاد يقول: "انتدبوا إليّ أنشطكم وأحرصكم، فإنّي مرسله إليه، فليأتينّكم من عنده بخبر سعيد".

فلبثوا غير بعيد، وإذا بالصيّاد الثّاني يقدم وحوله سرب من العقبان والنسور والكلاب، فلمّا رآه الغزلان استبشروا خيرا، وهنّأ بعضهم بعضا بالنّصر والفرج.

وهم على حالهم تلك مشرئبين يتفرجون، متطلعين للنصر الأكيد، وإذ بالصّيّادَيْنِ ـ بعدما تلاسنا ساعة ـ يقتربان ويجلسان على الأرض، ويرسمان بينهما خريطة هي أشبه ما تكون بأرض الغزلان، ثمّ يرسمان خطا يقسمان به الخريطة نصفين، ثمّ يبتسمان فجأة ويتصافحان، ويفترقان إلى وجبة عربيّة هنيئة مريئة.

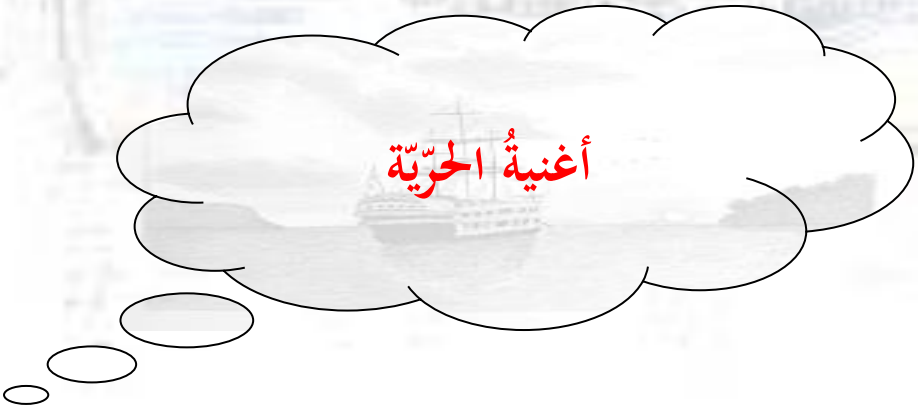

هبّتْ ريحٌ باردة، تراقصتْ لها أوراق الشّجرة العظيمة، وتقلّصتْ وأفرزتْ رطوبة.

فخاطبَ الجزء الترابيّ[1] الجزءَ الهوائيّ[2] منها مجامِلاً:

. أراكَ تتألّمُ أيّها المسكين، لطالما تمنّيتُ لو أقتسمُ معكَ بعضَ متاعبك.

وكان يظنّ أنّه سيردّ على المجاملة بمجاملة، ولكنّ الجزء الهوائيّ امتعض كأنّما سمع هجرا، ثمّ تكلّم بصعوبةٍ مُظْهِرا علوّا وكبرا:

. لا يؤلمني شيءٌ ممّا تظنّ، لا يؤلمني إلا قبضتُكَ التي قبضتَ بها على جذعي، فصفّدتَ بها حريّتي.

فتعجّب الجزء الترابيّ من هذا الهجوم المباغت، وتساءل:

. كيف تتّهمني وقد خلقنا لبعضنا؟، نحن شيء واحد.

الجزء الهوائيّ: لا.. لا.. لا يمكن أن نكون شيئا واحدا فلا تُمَنِّ نفسَكَ الأمانيّ الكاذبة، نحن مختلفان اختلافا شديدا، كيف يكون الأخضر والأسود شيئا واحدا؟، أو كيف يمكن لمن همّته في نزول أن يرافقَ من همّته في صعود؟.

الجزء الترابيّ: ولكن رغم ذلك نبقى شيئا واحِدا، كلّ المخلوقات تعلم ذلك حتى الأطفال.

الجزء الهوائيّ: هَهْ.. إذا كنت تدّعي ذلك فاطلبْ من الأطفال أيّها الجزءُ المدفونُ أن يرسموا شجرة، وابحثْ عن نفسك في الرسمة، سوف لن تجدَ غير الجزء الهوائيّ، وذلك أنا، أنا الشجرة، وأنتَ طفيليّ معتدٍ.

[1] . يُقصد به الجذور.

[2] . يُقصد به الجذع والأغصان والأوراق.

الجزء الترابيّ: لا أكادُ أصدّق ما أسمع، أشكّ أنّ مخلوقا ما من المخلوقات الشّريرة يتكلّم على لسانك، أووووه.. عذرا، ماذا أقول؟، لا أظنّ إلا خطبا ما حلّ بك.

الجزء الهوائيّ: قلتُ لكَ لا خطب إلا أنت، تدفِن نفسَكَ في الأرض، وتختارُ أبشع الألوان، وتفضّلُ السّتر وترفضُ النّور، وفوق ذلك كلّه تقبض على جذعي، فلا تتركني أنطلق حرّا كما تفعل جلّ المخلوقات.

لم يطق الجزء الترابيّ سماع هذا الاتّهام القاسي، فغيّر من لهجته وقال:

. نعم أنت الشجرة، ولكنّكِ من غير أخلاق، اسمعي أيّتها الشجرة المغرورة، لقد أقحمتِ نفسَكِ مقحما لا تطيقنه، ودخلتِ حربا لستِ أهلا لها، وأدرْتِ ظهرَك لحليفٍ قديم، والمؤلم في كلّ ذلك أنّكِ تعلمين أنّي مأواكِ ووطنُك، وتدركين جيّدا أنّ خضرتَك من سوادي، وجمالَك من قبحي، وحرّيتَك من قيدي، ولو استبدلتِ موضعي بموضعك ليومٍ واحد لعلمتِ كم أقاسي لتستمتعي.

ضحك الجزء الهوائيّ ضحكةً ساخرةً وقال:

. أتسمّي هذا الذي أعيشه استمتاعا؟ وأنتَ ترى أنّي مربوطُ الذّات والإرادة لا أستطيع السّفر ولا الرّكض ولا التّحليق؟ غُرَّ بكلامك غيري، أمّا أنا فهمّتي في التجوّل، وعيني على الحريّة، ولأنالنّها يوما ما وإن تسبّب ذلك في قتلكَ، وإنّي أبوح إذ أبوح بما سمعتَ وأعتبره تحدّيا لك.

الجزء الترابيّ: آآ.. الآن فهمت، أنتَ أيضا سمعتَ أغنية الحرّية التي راجت سوقها عند كثير من المخلوقات، فردّدتَ معهم دون أن تفهم معناها ولا مغزاها.

الجزء الهوائيّ: هَهْ.. ما أسفهك وما أغباك، ولكن لن ألومك، لأنّك لا تعرف عن الحريّة شيئا، وأنّى لك ذلك وأنت مدفونٌ في رقعتك لم تر كيف تعيش المخلوقات المتنوّرة هناك حرّة بلا قيود ولا حدود.

ثمّ تحسّر وقال:

. ولكنّي سمعتُ وشاهدت، لذلك جننتُ بحبّها، ولن يهدأ لي بالٌ حتى أنالها.

الجزء الترابيّ: لا أراكَ إلا تعرّضتَ لاغتصابٍ فكريّ، واختراقٍ معرفيّ، وغزوٍ ثقافيّ، ألم يحدّثك عارِفٌ ممن يدرك كنه الحرّية أنّها أنواع عديدة، وأشكالٌ مختلفة، وأنّ ما قد يكون حرّية لكائنٍ قد يكون قيدا لآخر.

الجزء الهوائيّ: الحرية ليست علما حتى تضبطها بمقاس.. الحرّيّة إحساس... الحرّيّة إيمان بالذّات.. الحرّيّة انطلاق.. آه.. هل أنال حرّيتي يوما ما يا ترى؟ ومتى يكون ذلك متى؟.

الجزء الترابيّ: لو كانت أمنيتُكَ معقولة ومشروعة لفهمتُ وقدّرتُ طموحك، ولكني أرى مثَلَك كمثل تلك القرية التي كانت آمنة مطمئنّة يأتيها رزقها رغدا من كلّ مكان، فكفرت بأنعم ربّها، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف، وكان مصيرها ما تعلمين.

الجزء الهوائيّ: تقولُ أمنيتي غير معقولة ولا مشروعة؟.

الجزء الترابيّ: نعم أمنيتك ضدّ حريتك لو تبصر، حرّيتنا أيّها الجزء العلويّ في قيدنا، حرّيتك أن تكون معي، وحرّيتي أن أغوص في الأرض بحثا عن الحياة، هذا قدري وقدرك، ولا عيب في ذلك مطلقا، فارض بذلك تحصل على حرّيتك وسعادتك.

الجزء الهوائيّ: دعنا من خُطَبِك الرّنانة، ودعنا نكون أكثر فاعليّة، هيّا ننفصل..

كان الجزء الترابيّ قد وصل إلى حالة خطيرة من الإحباط، فهزّ رأسه متحسّرا ولم يتكلّم، وأكمل الجزء الهوائيّ تحدّيه:

. تريد الصّدق، والله وبالله وتالله، لو أعثر على نصف فرصة لتخلّيت عنك وانطلقت أعيش حرّيتي.

وقبل أن يكمل جملته الأخيرة . فجأة . تغيّر الجوّ، وهبّت ريحٌ عاتية، فاستبشر الجزء الهوائيّ، ورأى أنّها فرصتُه، فاستشرف وتراخى، وكان عونا على نفسه، ولم تجد الريحُ صعوبة فكسرته من أسفل الجذع، وفصلته عن الجزء الترابيّ.

♦ ♦ ♦

اليوم.. بعد مرور شهورٍ على الحادثة، يحكي لك المكانُ الذي حدثت فيه قصّتين: الأولى عن الجزء الهوائيّ الذي دبّ فيه دبيبُ الموت حتى سلبه لونه وماءه وروحه، فهو خشبة صماء تعوث فيها السّوس.

والثّانية عن الجزء الترابيّ الذي أخرج برعما جديدا، وأمّده بالرّعاية والدّعم حتى صار شجرة جميلة.

عجلةُ الكاتبِ

كَتَبَ الأديبُ المبتدِئُ سطرا ثم محاه..

لم يكن الأسلوبُ في مستوى القصة التي أراد حياكتها..

وفعل مثل ذلك مع السّطر الثّاني والثالث والرّابع، فلمّا بلغ منتصف الصّفحة خطًّا ومحوًا، أخذ الورقةَ من الطاولة بحركةٍ عدوانيّة تُنْبِئُ عن غضب وغيظ، ثمّ فركها بين أصابعه وضغطها بحقد حتى صارت مستديرة وقاسية ككرة المضرب، ثمّ سدّد أنفه جيّدا صوب سلّة المهملات ورماها فأصدرت صوت خشخشة وقرقرة، ثمّ استقرّت وسكنت، وكان بذلك قد أكمل مراسم دفنها.

ولم يترك الهدوءَ يفرض سكينته على المكان، بل بادره بحركة عصبيّة أخرى أخذ بها ورقة ثانية من درج مكتبه، وفعل معها مثل ما فعل مع الأولى حذوَ أوراق الخريف بعضها ببعض وهي تتساقط، فلمّا امتلأ بطنُ سلّةِ المهملات بكرات المضرب أو كاد، لم يطق القلمُ السّكوتَ على هذا المنكر، فزفر، وأخذ نَفَسًا عميقا ثم صرخ في وجه الكاتب:

. متى يأتي الدور عليّ؟.

دهش الكاتب من جرأة الخطوة وخشونة الصّوت، ففتح مقلتيه حتى جحظت عيناه، وركّز نظره على قلمه الأسود بين يديه، ثمّ قال له مهدّدا:

. أتحتجّ على مالكك ووليّ نعمتك ولستَ سوى أنبوبٍ بلاستيكيّ حُشي حبرا كريها لم يدع من ماء المجاري صفة إلا اتصف بها؟ وماذا تريديني أن أفهم من سؤالك؟ هل هو إعلان تمرّد؟ أو انقلاب؟ أو شفقة مغشوشة؟.

رأى القلمُ أنّ الانتصار للنّفس خُلُقُ الضّعفاء، فأخفى غضبه، وأظهرَ من ملامحِ وجهِهِ تفهّمًا، وقال بلغة الْمُصْلِح:

. لا يا سيّدي، لا يليق بنا أن نغضب، اهدأ وخذ الأمر كما لو كان نصيحةَ ابنٍ لأبيه، أو خادمٍ لسيّده.

الكاتب: أتسمّي سؤالَك الحافي وجرأتَك الحاسرة نصيحة؟.

القلم: أعتذر إن كان قد أحرجك، ولكنّه تساؤل مقصود، أردت منه تنبيهك إلى الورطة التي وَضَعْتَ فيها نفسك حين ادّعيتَ الكتابة ودخلتَ مضمارها قبل أن تحوز وسائلها وتتدرّب على مهاراتها، ولَمَّا لم تطاوعْك أفكارُك ولا حروفُك صببتَ غضبك على الورق، وأنت تعلم أنّه بريء.

ثمّ تنهّد وأكملَ شكواه:

. ومن خيبتي أنّي كنت أرى وأسمع ما يجري، فعلمتُ أنّي لو تركتُ الوضعَ يسير كما هو جاء الدّور عليّ لا محالة.

سمع الكاتبُ كلمة "ادّعيتَ الكتابة" ولم يسمع شيئا بعدها، فضغط بإبهامه على رأس قلمه حتى تقوّس، واقترب منه وهمس في أذنه:

. لم أر في حياتي أجرأ منك، تتحدّاني ورأسُك تحت قبضتي؟.

فجاء صوتُ القلم ضئيلا كما لو كان يتكلّم من أعماق بئر سحيق:

. لستُ أتحدّاك.. أردتُ نصيحتَك فقط، ولكنّي أرى مَثَلَك كَمَثَلِ ذلك الملكِ الفاجِرِ الذي أحاط نفسَهُ بحاشيةِ سوء، وبطانةٍ متملّقة، احترفتْ إخفاء الحقيقة المرّة عنه، وتفنّنتْ في إفشاء الكذب المعسول له، وهو يعلم ذلك عنهم وراضٍ به، إرضاءً لشهوته، واستبقاء لنشوته، حتى دخل عليه العدوّ على حين غرّة، فصادفه بين غانية وكأس.

اهتزّ الكاتب كما يهتزّ الهاتف، وشعر بوقع كلمات القلم وهي تسقط تباعا على زجاج قلبه فتكسره، فغيّر هيئته، واعتدل في جلسته.

ولمح القلمُ أثر التغيّر في وجهه، فاستغلّ الفرصة وقال والشفقة تصبغ حروفه:

. اسمعني يا سيّدي ولا تستعجل، فإنْ أعجبك كلامي قبلتَه، وإن لم يعجبك كففتُ عنك.

سكنَ الكاتب في مكانه ولم تصدر عنه أيّ حركة، فتأوّل القلمُ ذلك بالرضا، فانطلق يتلو عليه نظرياتٍ في الإنشاء والمعاني والبيان، وحدّثه عن الفصاحة والبلاغة، وحُسْنِ السّبك وأهمّية الخيال، وتنمية الذّوق، وتثقيف الذّات، ومهارة استحضار المعارف المخزّنة.

واستعجل الكاتب فقاطعه قائلا:

. أوتظنّ أنّي لا أدرك ذلك؟، والله لقد قضيتُ بياضَ نهاري وسوادَ ليلي في مطالعة تلك النّظريات، وتقليب تلك البديهيات، حتى أصبتُ بالغثيان، ولكن هل تراها نفعت؟، الحقيقة التي لا تخفى على ذكيّ: أنّها لم تزد ريبي إلا شكّا، ولا خوفي إلا اضطرابا، وإنّي أعترف أمامك أنّي عاجز كلّيّا عن صياغة نصّ يرضيني، ولقد بلغ بي العياء إلى درجةِ أنّني كلّما أمسكتُ بكَ أيّها القلم شعرتُ أنّي مصابٌ بشللٍ رباعيّ، فلا خيالي، ولا ذوقي، ولا بياني، ولا تجاربي تتجاوب مع رغبتي في الكتابة.

وكلّما قاومتُ وحاولتُ أُصِبْتُ بنوبةِ غضبٍ كتلك التي رأيتَها الآن، ولا تهدأ إلا بالكسر أو التّمزيق.

ضحك القلمُ حتى دمعت عيناه، وهو يشير بيده: لا تغضب، ثمّ همّ أن يشرح له، لكنّ الكاتب قاطعه قائلا:

. إنّ القلقَ يسيطر على أعصابي، ولا يدعني أصغي للمحاضرات الطّوال، فإن كنتَ ترى كلامَك جديدا ونافعا فقل واختصر، واجعل إجابتك مركّزة، وإلا أجّلنا الحديث إلى وقت لاحق.

ضحك القلم ثانية وقال:

. الآن فهمتك جيّدا، أنت تمتلك جميع الوسائل، وتبحث عن اللّمسات الأخيرة أو ما يسمى بالرّوتوشات.

أرخى الكاتب رأسه مستسلما لليأس، وقال بصوت لا يكاد يبين من شدّة الاضطراب:

. اللّمسات الأخيرة أعظم مشكلة.

فهزّ القلم رأسه نافيا حُكْمَ الكاتب المستعجلِ وقال مُطَمْئِنًا:

. أبشر يا صديقي أبشر.. فقد سقطتَ على الخبير، سأشرح لك في كلمة ولن أزيد، أنا شاهد عِيان، لطالما وقفتُ بين أصابع كبار الكتّاب والعلماء والأدباء، وشاهدتُ ما يفعلون، فوجدتُ الفرقَ بينك وبينهم بسيطا جدّا، ويمكنُ ضبطُه في جملة: إنّهم يكتبون النّصّ كما كان حتى النّهاية، ثمّ يعودون فيعملون فيه، أمّا أنت فأراك تستعجل التصّحيح والتّنقيح، وذلك فيه شيء من التّثبيط لا تدركه.

قال الكاتب والبشر يصبغ وجهه:

. أبصرْ ما تَقُولُ، فإنّك تزعم أنّ الفرق بيني وبينهم "كتابة النّصّ كاملا ثمّ العمل عليه فقط".

هزّ القلم رأسه موافقا وقال في ثقة:

. جرّب وسترى.

جلستُ أنظر إلى فراشتَينِ

تمرحان على زهرتينِ

ملأتَا الجوّ سرورا وابتهاجا

ثم طارتا.. طارتا..طارتا

حتى اتحدتا

كانت الأولى في الحقيقة

والأخرى ظلَّها في المرآة

♦ ♦ ♦

جلستُ أتأملُ ممتلئَ الذهنِ

أعالج فكرتين

ملأتا فكري صراخا وانفعالا

قاومتا .. قاومتا.. قاومتا

حتى تحققتا

كانت الأولى في ذهني

والأخرى في مرآةِ واقعي

نَظَرَ شابٌ وسيمٌ من خلال المرآة إلى وجهه فانقبض، وتراجع خطواتٍ إلى الخلف كأنّه يهرب من نفسه، وتحسّس نتوءا فُطريّا على خدّه الأيمن بسبّابته، ثمّ هدّد المرآة بقبضة يمناه كأنّما هي من زرعه، ثمّ تنهّد وانصرف إلى فراشه، وغطّى رأسه ليستر وجهه.

كان ذلك بسبب ثُؤلولٍ صغيرٍ ظهر فجأة على خدّه الأيمن، فآلمه مظهره، واستثاره وجود هذا الضيف الفضوليّ غير المرغوب فيه، فارتمى على السّرير ودفن جسده في الفراش، فلمّا لفّه النّوم في عباءته، رفع الثُّؤلول المنبوذُ عقيرته معلنا احتجاجه، وتوجّه بالخطاب إلى خالٍ أسود كان يحتلّ نفس المكان من خدّ الشّاب الأيسر.

قال الثُّؤلول والألم يضغط على صوته:

. لا أدري أين ترك هذا الشّاب عقله، أم تراه من غيرِ عقل؟ أمّا أنا فأرجّح هذا، أرجّح أنّه وُلِدَ بلا عقل.

ورفع صوته أكثر ليسمعه الخالُ وهو يقول:

. وإلا كيف تفسّر فرحَ هذا الشّاب الحَدَثِ بخالٍ زنجيّ أسود، وتذمّره من ثؤلولٍ أزهرَ ثُلاجيٍّ ناصعٍ كأنّه قرص القمر؟.

وصمتَ ينتظرُ تعليق الخال، ولمّا استبطأ إجابتَهُ عاد يقول:

. ما زلتُ محتارا لا أفهم شيئا، فلو اقتصر الأمرُ على هذا الشّاب الغِرّ لاتّهمتُه واسترحت، ولكنّ الأمر يتعدّاه إلى كلّ البشر، كلّهم يفرحون بالخال كأنّه حِلية ذهبيّة، ويستقبحون الثّؤلول كأنّه نُخَامة أو قذارة، فهل ترى أنّ البشر خلقوا من غير ذوق؟.

وصمتَ مرّة ثانية قبل أن يضيف:

. ربما كان خطأ الأوّل لمّا اختار لك اسما جميلا تستعذبه الأسماع، واختار لي اسما ثقيلا تمجّه الآذان، نعم وجدتها.. إنّ الفرق بيني وبينك يكمن في الاسم، أمّا الحقائق فشتّان بيننا.

ظلّ الخال صامتا هادئا رزينا طوال الوقت لا يستثيره تعيير الثُّؤلول ولا استنقاصه، ولم يحاول جوابا، ولم يشارك في النّقاش مطلقا، لأنّه كان على ثقة تامّة لا يطرقها شكٌّ أنّ الثُّؤلول كان يعلم، أنّ الشّابَّ الوسيم يعلم، أنّ أهلَ الذّوق والجمال يعلمون، أنّ الخال زينة وأنّ الثُّؤلول علّة.

قال الكرسيّ: كنت مريحا ومناسبا جدّا، ولأجلي فقط تفوّق الطالب.

فردّت الطّاولة بحماس: كفاك ادّعاء، إن كان لك . أيّها الكرسيّ . علاقة بالجانب النّفسيّ، فليس لديك علاقة بالجانب التحصيلي مطلقا، أنا من حمل له كراسته وأدواته، وكنت فراشا وثيرا لأفكاره، ومستندا يستند عليّ كلّما همّ بالكتابة.

قال القلم: لكلٍّ منكما فضل، ولكن أين فضلكما أمام فضائلي؟، أنا الذي ثبّتُّ أفكاره، وقيّدت فوائده، ودوّنت معارفه، فإن كان لأحد الحقّ في مزاحمتي كان الكرّاس.

قالت السّبورة: أيها الأصدقاء، أنسيتم أنه يجلس على الكرسيّ ليراني، ويتكئ على الطاولة كما يتكئ الكهل على عصاه وهو يمشي، والغاية أن يصل إليّ بصره، ويحدّق فيّ ليفهم، وعني نقل ما ساهم في بناء ذاته.

كان هذا الحوار يدور ويحتدّ، حينما قطعه صوت الطالب وهو ينزع الميدالية من عنقه ويضعها في عنق أستاذه قائلا:

. لولاك يا أستاذي لما رحتُ في طريق النّجاح ولا أتيتُ.

كان المشهد غريبا ومقلقا، كان واضحا جدّا أنّه لو أكمل الزّورقان سيرهما بنفس الوتيرة وفي نفس الاتجاه فإنّ اصطداما عنيفا سيحدث، وذلك ما قد يحصل في أيّ لحظة، لأنّ الرّبانين . فيما يبدو . منشغلان لا يشعران بخطورة الموقف.

وبعد قليل.. عندما ظنّ النّاس أنّ انفجارا وشيكا سيحدث، وقف الزّورقان بصعوبة وقد حكّ أنف الأول أنف الثاني، وحملق الرّبانان في بعضهما البعض مليّا، قبل أن يقول أحدهما بلهجة الآمر:

. إنّ البحر طويل وعريض فانسحب يمنة أو يسرة.

قال الثّاني مستعيرا الخشونة من صوت الأوّل: ما دمتَ تدرك ذلك فافعل أنت.

قال الأوّل: ولكنّ هذه طريقي إلى الجزيرة، ولا أظنّك إلاّ أضللت طريقك.

قال الثّاني: ألا تؤدّي هذه الطّريق إلى الشّاطئ؟.

قال الأوّل: بلى.

قال الثّاني: هي طريقي إذن ولم أضللها.

قال الأوّل: ولكنّي ذاهب وأنت راجع، والذّاهب مستعجل، والرّاجع مستروح.

قال الثّاني: ومن يصدّق ما قلت؟، فهبك ذاهبا للسّياحة وأنا راجع إلى شغل، أيّنا أكثر عجلة؟ ومن منّا أحقّ بالمرور أوّلا؟.

قال الأوّل: كأنّك لم تفهمني، لم أطلب منك أن تعود أدراجك، طلبت منك أن تغيّر اتّجاه قاربك قليلا، ألا تعرف كيف تغيّر اتجاه قاربك إذا قابلت قاربا أو جسما في طريقك لتتجنّب الاصطدام به؟.

قال الثّاني: تمنّيت لو غيّرتَ أنت اتّجاه قاربك فأتعلّم منك كيف يكون ذلك.

قال الأوّل: ما أضيق صدرك وما أجرأك على الخصومة.

قال الثّاني: وصدرك والله أضيق، وأنت البادئ بالخصومة، فعليك أن تتحمّلَ وِزْرَيْنِ وتبوء بإثمين.

قال الأوّل: ألا ترى أنّه لو شَاهَدَنَا أَحَدٌ فإنّه سيجعل قصتنا نكتة، وحادثتنا سبة؟.

قال الثّاني: إن كان يؤذيك سبّه وتنكيته فلماذا لا تقوم بما تطلب منّي؟.

قال الأوّل: أليس عيبا أن يضيق صدرنا ونتخاصم ونتجادل في عرض البحر، والحلّ معروف وبسيط ومقدور؟.

قال الثّاني: والله إنّه لعيب وذنب، وسفاهة وفضيحة، وكنت أظنّ أنّك تجهل ذلك، لذلك عذرتك، أما وإنّك اعترفت بعلمك ومكابرتك، فإنّي أنصحك من كلّ قلبي أن تخجل، وأن تترك الجدال وتنسحب بعيدا.

♦ ♦ ♦

قال الأوّل وردّ الثّاني، جدالات وخصومات، هكذا تبدأ دائما أمّا النّهايات فلا يستطيع أحد تقديرها..

تلك هي حياتنا وتلك هي قلوبنا وتلك هي أخلاقنا.. ما كتبت إلا من وحي الواقع، وما وصفت غير ما شاهدت، وما استعرت غير المشهد والصّورة، أمّا الحقيقة فهي هي، وربّما أسوأ.

أسأل الله العظيم أن يبصّرنا بعيوبنا، ويرزقنا خلق الاعتذار، ويهدينا إلى المبادرة إلى الخير والسّبق بالإحسان.

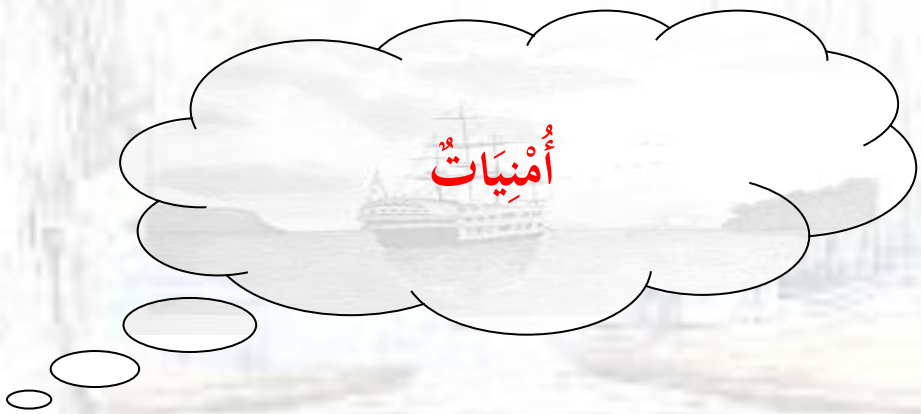

كان نفرٌ من الشّباب منهمكين في هواياتهم، لكلّ امرئ منهم شغلٌ يلهيه، حين سمعوا صوتا ينادي عليهم: أن تمنّوا.

فلم يشاؤوا تضييعَ هذه الفرصة الذّهبية المهداة، وراحوا يعرضونَ أمانيّهم واحدا واحدا حسب ترتيب جلوسهم..

كان الكسول في فاتحة المجلس فتمنّى قبلهم: لو أرزق سباتا كسباتِ بعض الحيوانات، فلا أستيقظ إلا لأستعدّ لسُباتٍ آخر محشوٍّ بمناماتٍ أفضل.

فهزّ المُجِدُّ رأسَه متأسّفا، ثمّ تمنّى هو قائلا: آهِ لو أُخذ من الليل وزِيدَ في النّهار، فلا أنام إلا إغفاء، ليكون ذلك كافيا لقضاءِ حوائجي التي لا تنتهي، وتحقيقِ طموحاتي التي لا تنقضي.

وكان على يمينه ديّ الهمّة فتمنّى أن لو يَفتح الله على فلانٍ ـ شخصٍ غنيٍّ سمّاه ـ برزقٍ ممدود، وخيرٍ مشهود، وأموالٍ كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، فأعينه في استثمار ماله وتدبير ممتلكاته، مقابلَ أجرةٍ محترمةٍ.

فضحك عالي الهمّةِ ضحكةً رقيقةً كتمها بيده، ثمّ خَلَفَهُ فقال: أتمنّى لو أنّ فرصةً واحِدَةً فقط تُتَاحُ لي، فو الله لن تجدني حينها شكّاكا، ولا خوّارا، ولا متردّدا، ولا متخاذلا، وسأهتبل الفرصةَ بهمّة، وآخُذُ المبادرةَ بقوّة، فِعْلَ القنّاصِ بطريدته، والنّسرِ بفريسته.

واستعجل المتواكلُ فتمنّى لو يجدُ كنزا في حقيبةٍ على الرّصيف الأيمن، تحتَ شجرةِ التّوت التي زرعتها البلدية أمام داره.

ورفض ذلك المتوكّل، واعتبره تعدّيا في الأماني، وتمنّى لو يوفّق إلى صناعة كنزه بيديه.

وتمنى الباقون كما تمنى أولئك.

وكان بينهم رجلٌ يظهر من هيئته أنّه مثقّف ومحترم جدّا، وكان يجلس في خاتمة المجلس، فلمّا جاء الدور عليه لم يذكر سببَ قلقه ولم يشرْ إليه، وتمنّى أمنية غريبة لم يجعلها لنفسه، تمنّى لو تُرفض كلّ الأمانيّ التي سبقت، ويُتْرَك الأمر اجتهادا وتخطيطا ومنافسة.

فقُبِلَتْ أمنيتُه ورُدّتْ بها أمانيُّهم.